الفصل الرابع

الاتجاهات النقدية
Critical Attitudes

- ما هي نقطه البدء عند التفكير في طريقة قراءتنا للنص؟
- ما هو اتجاه القراءة الداخلي (النصي) Intrinsic؟
- ما هو اتجاه القراءة الخارجي (السياقي) Extrinsic؟

قد يبدو النص الإنجليزي محيراً عندما ندرك وجود عدد لانهائي من الطرق التي نستطيع قراءته بها، وإذا حاولت استكشاف طرق مختلفة للتأويل، مختبراً بذلك أفكارك المسبقة ومشاربك وطريقتك في القراءة، فمن أين يجب أن تبدأ؟

أوضحتُ في الفصل السابق أن تَعلُّم الاتجاهات أو النظريات النقدية المختلفة هي عملية يجب أن تستوعب مراحلها والتي يعد البحث عن إستراتيجية عملها أحد تلك المراحل. يتم ذلك بالبحث في الأفكار التي بُنيت عليها كل منها وكذلك دراسة السياقات التي تفهم من خلالها النصوص، لذا آثرت أن أُقَدِّم في هذا الفصل نموذجاً واحداً يمكن الاعتماد عليه كنقطة البدء لدراسة عدد كبير من الاتجاهات النقدية.

هل مصدر المعنى داخل النص أم خارجه؟
Into the Text or out from the Text

عند إمعانك النظر في لوحة فنية، هل تمثِّل لك نافذة على عالم آخر؟ أم أنك تلحظ تمازج الألوان والأشكال على لوح مسطح؟ إذا كنت من أنصار الاتجاه الأول فما خلف النافذة هو الأهم مثل الشخوص الموجودة: من هم وما سبب رسمهم؟ وقد تتساءل عن الأهمية التاريخية لجمجمة فوق رف أو حتى السبب وراء اختيار الرسام لموضوع ما في المقام الأول. أما إذا كنت من أنصار الاتجاه الثاني فإن أسئلتك ستدور حول اختلاف أنماط الألوان أو التلاقي بين الأشكال، أي أن تمازج الألوان فقط هو الذي يجذبك للوحة.

يحدث ذلك التناقض أيضاً بين نفس المنهجين في الأدب، لذا عليك أن تسأل نفسك عن المنهج الذي تتبعه عند قراءتك لرواية أو قصيده أو مسرحية. هل تنظر إليها على أنها نسيج لغوي جميل؟ أم على أنها مثال كتابي يخبرنا عن الحقبة التاريخية التي كُتِب فيها النص؟ هل كانت صياغة الكلمات والجمل هي المحفز الأول لك على القراءة؟ أم لأن تلك الكلمات والجمل تعرض على الورق خبرات وأفكار مشوقة تفتَّقت عنها قريحة كاتب ما؟ هل تدرس الأعمال الأدبية لخصائصها الفنية الذاتية؟ أم لأنها تكشف لك العالم وتعرض أمام عينيك خبرات المؤلفين؟ هل ترى أنك تدخل إلى النص ذاته؟ أم تركز خارجة لتتناول قضايا أخرى؟ ساد الخلاف حول ما إذا كان التفسير يجب أن يأتي من داخل النص ذاته (الاهتمام فقط بلوحه الرسم المسطحة) أم من خارج النص باعتباره دليلاً على حقبة تاريخية مثلاً أو على حياة المؤلف الخاصة (النص عبارة عن نافذة على العالم)؟ أطلق رنينه ويليك Rene Wellek وأوستين وارين Austen Warren في كتابهما الأشهر "نظرية الأدب" Theory of Literature (١٩٤٩م) على هذين الاتجاهين لفظي "نصي/داخلي"

و"سياقي/خارجي"، وهما يمثلان موقفين متغايرين لتفسير النصوص الأدبية. تندرج الدراسة التي تناقش ما يحدث عند تفسير النص بطرق مختلفة مقارنين بذلك مناهج تفسيرية بعضها ببعض، والتي ذاع صيتها منذ عام ١٩٤٩م تحت مباحث علم الهرمنيوطيقا Hermeneutics.

الاتجاهات النصية (داخل النص)

Intrinsic Attitudes: Into the Text

غالباً ما يطلق على هذا الاتجاه "الاتجاه الشكلي" formalism لأنه يهتم بشكل النص من حيث التركيب واللغة المستخدمة، حيث يفترض وجود سمة خاصة بلغة النص تضفي عليه الصبغة الأدبية، لذلك فهو يركز على لغة النص كمحور للدراسة آخذاً بعين الاعتبار تناول الاستعارات والرموز والتراكيب والإسلوب والأخيلة وتطور الحبكة للوصول إلى ما يعنيه النص. ورغم أن تلك الجوانب الشكلية في النقد الأدبي قد تبدو غير مجدية، إلا أن تنتبع الأساليب والطرق التي يسير وفقها النص وكذلك التحويرات اللغوية يمكنها أن تنتج قراءات ذات طابع خاص. وفي الحقيقة أن الدراسة التفصيلية "للكلمات المطبوعة على الصفحة" يمكن أن تؤدي إلى تفسيرات جديدة ومشوقة للنصوص حيث يتم تفسير المعاني غير الواضحة لكل كلمة أو تركيب لغوي يكتنفه الغموض، لكن المشكلة أنه كلما تمعنت في دراسة الكلمات ذاتها ككيان مستقل تصبح معانيها أكثر غموض (أو غير محددة) وهو ما يتضح جلياً في لغة الشعر.

مثال ذلك سونيتة[١] "مؤلفة فوق جسر وستمنستر" Composed Upon Westminster للشاعر الإنجليزي وليم وردزورث William Wordsworth

(١) السونيته Sonnet هي شكل من أشكال قصائد الشعر الإنجليزي تتكون من ١٤ بيتاً.

(١٧٧٠-١٨٥٠م) والتي تصف لندن من فوق الجسر وقت الفجر بالمترامية الأطراف تتغشاها أشعة الشروق. يقول الشاعر واصفاً المدينة: "لا يوجد على الأرض أجمل من ذلك المنظر فالمدينة تتشح ببهاء الصباح"، ثم يختتم القصيدة بالأبيات التالية:

"يا إلهي! إن البيوت نائمة

ورغم قلب المدينة القوي، ما تزال ساكنة (كاذبة) lying still"

إن المعنى الأول لعبارة "ما تزال ساكنة" هو الصمت المطبق المسيطر على المدينة، لكن هناك معنى آخر هو أن المدينة رغم كل ذلك الجمال في الصباح مليئة بالأكاذيب lies، فالشروق يجعل لندن في أبهى حلة على المستوى الظاهري فقط، لأن "ذلك القلب القوي" ما هو إلا وكر للخداع والفساد والزور والأكاذيب. من هنا نجد أن الدراسة اللغوية —وما تعطيه من اهتمام بالشكل- قد أسفرت عن قراءتين: فمن ناحية تبدو لندن في غاية الجمال لكن من ناحية أخرى تخفي تحت هذا الجمال الفساد والخداع. ويعتمد اختيارك لإحدى القراءتين على الطريقة التي تفسر بها الكلمات.

يرى النقاد الداعين للمنهج الداخلي النصي أن دراسة الإنجليزية يجب أن تركز بالأساس على دراسة الكلمات ككيان مستقل وهو ما كان مسيطراً على مادة الإنجليزية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، فظهر ذلك جلياً أول الأمر في كتاب آي. أ. ريتشاردز I. A. Richards "النقد العملي" Practical Criticism (١٩٢٩م) حين أعطى ريتشاردز قصائد لطلابه دون ذكر اسم الشاعر أو تاريخ التأليف أو أي معلومات أخرى قد تعطي للطلاب خلفيات عن النص

وطلب منهم أن يعرضوا آرائهم واستجاباتهم (أي أن يقوموا بنقد عملي له) ثم قام بجمع ما كتبوه معتقداً أن تلك هي الطريقة المفيدة لدراسة الجانب الأدبي من أي نص وهو ما جعل للغة قيمة كمصدر للأخلاق. ثم انتشرت تلك الفكرة في الولايات المتحدة في الثلاثينيات و الأربعينيات من نفس القرن وأصبحت من الأسس الثابتة لدراسة الأدب وهو ما عرف بمدرسة "النقد الجديد" New Criticism وأطلق اسم "النقد العملي" أو "القراءة المتعمقة" على طريقة التفسير التي انتهجها أنصار ذلك المنهج.

ما زال هذا النوع من الاتجاه النصي في دراسة الأدب مؤثراً (حيث ينظر لطريقة "القراءة المتعمقة" للنصوص على أنها محور أساسي في معظم المواد الدراسية). فعندما يطلب منك المدرس أن تقدم "نقداً عملياً" لقصيدة ما أو"تعرض شرحاً" لها أو "تحلل الأساليب الشعرية الرئيسة" بها أو "تقدم دراسة دقيقة للمعنى واللغة والتراكيب" أو تحليل "الأسلوب" أو "تقنية السرد" أو حتى "التعليق على مهارة المؤلف في البوح بمشاعره الكامنة من خلال الأحداث أو الوصف" فأنت تتبع بذلك منهجاً نصياً شكلياً في دراسة الأدب. وعلى الرغم من أن الأسئلة المتعلقة بالشخوص أو الحبكة تبدو أكثر شمولاً من النواحي السابقة، إلا أنها تؤدي بك إلى اتباع نفس المنهج. فكيف ستقرأ نصاً ما لكي تجيب على الأسئلة التالية مثلاً (وهي الأسئلة المعهودة في اختبارات المستوى المتقدم "قديماً"A level):

- ما علاقة (هاملت) و(كلاوديوس) كطرفي الصراع المحوري في المسرحية؟
- ما الدور الذي تلعبه الشخوص الفرعية في الرواية؟
- صف مشهداً دراميا في الرواية وناقش أهميته بالنسبة للرواية ككل؟

إنك لا تحتاج هنا إلى خلفية ثقافية خارج نص المسرحية أو الرواية محل الدراسة.

obeikandl.com

ورغم ما يبدو من الجوانب المهمة التي يعالجها ذلك المنهج، إلا أن استخدامه بشكل مستقل في الدراسة لا يغطي جوانب أخرى، وذلك لِما يقوم عليه من فرضيات عامة كما أوضحت في الفصل الثاني. في حين يزعم بعض النقاد أن هذا النوع الذاتي من النقد يؤدي "لقراءات موضوعية" لأن دراسة النصوص بمعزل عن سياقها التاريخي والاجتماعي والشخصي والتركيز على "أدبية" النص فقط هو ما يجعل للنص قيمة كعمل فني و هو ما يجعله بدوره جديراً بالدراسة. لكنك مهما ادعيت التركيز في دراستك على النص فقط، فإن ذلك لا يمنع من أن تقرأ النص محملاً بأفكارك الخاصة وتوقعاتك وخبراتك السابقة، حتى يتسنى لك حينئذ أن تقدم حكماً موضوعياً عن النص.

الاتجاهات السياقية: خارج النص
Extrinsic Attitudes: out of the Text

خلافاً للمنهج النصي، يقوم المنهج السياقي على مسلمة مؤداها أن النص الأدبي جزء من العالم ومتأصل في السياق الذي كُتب فيه، لذا يقوم الناقد وفقاً لذلك المنهج بالتحرك إلى خارج النص لدراسة جوانب أخرى ليست بالضرورة أن تكون جوانب أدبية. وهنا يقوم الناقد باستخدام النصوص الأدبية لاستكشاف أفكار أخرى عن العالم، ومن ثم فهو يتطرق لجوانب ذات طبيعة غير أدبية.

لعل المنهج الذي يدرس النص من خلال سياقه التاريخي من أهم وأشهر أنواع ذلك النقد السياقي، مما يحدو بالكثيرين إلى الإشارة للاتجاه السياقي على أنه مذهب تاريخي يستخدم النصوص الأدبية لمناقشة القضايا التاريخية وبالعكس، فهو يستخدم التاريخ لشرح النص الأدبي. عند تناول مسرحية شكسبير "الملك لير" مثلاً، يبحث الناقد التاريخي عن جوانب سلوك الملك في عصر شكسبير وكيف

كان الحاكم يتلاحم مع أمته، وبالعكس يمكن للناقد استخدام أدلة من عصر شكسبير لشرح المسرحية. لكن النقد التاريخي لا يتقيد بأعمال تتناول الماضي فهناك نقداً تاريخياً يتناول الأدب المعاصر مقتصراً على أكثر الأعمال الأدبية مبيعاً. كما تكشف دراسة سلوكيات الناس في عمل ما حتى لو لم يكن عملاً أدبياً عظيماً عن كل أنواع الاتجاهات الاجتماعية المعاصرة، فمثلاً إذا كانت الشخصية المحورية النسائية حريصة على ملاحظة السعرات الحرارية التي تستهلكها وجرعات الكحول التي تشربها وعدد السجائر التي تدخنها، فإن ذلك يعرض بالضرورة لما تشعر به النساء في المجتمع الغربي المعاصر من الاهتمام بشكل الجسم ورشاقته والسلوك الاجتماعي "المثالي".

تقوم كثير من القراءات الجديدة على هذا الاتجاه السياقي فيقدم نقاد التحليل النفسي psychoanalysis مثلاً فهماً للنص الأدبي من منطلق أنه نتاج لنفسية المؤلف أو كطريقة لفهم جوانب من العقل البشري بصفه عامة اعتماداً منهم على كتابات سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦-١٩٣٩م) واتباعه في تفسير الأعمال الأدبية، في حين يستخدم دعاة المذاهب السياسية النصوص الأدبية كنصير لهم في معاركهم السياسية والتاريخية. أما أشكال النقد النسوي الكثيرة فتستخدم النصوص الأدبية لاكتشاف أدوار النساء والرجال في النص الأدبي، كما أن هناك فريقاً آخراً من النقاد يتخذ من النص ذاته نقطة انطلاق للوصول إلى استنتاجات عن الطبيعة مثلاً أو الإنسانية أو مخاطر الحب. وحتى الاتجاهات التي تقوم على مقاصد المؤلف أو سيرة حياته الشخصية تُعد اتجاهاً سياقياً خارجياً لأن مقاصد المؤلف أو سيرة حياته تُعد أموراً خارج النص.

يشكل ذلك المنهج الذي ينظر "للعالم" من خلال النص أهمية للذين يؤكدون على مظاهر العلاقة بين الأدب والعالم الخارجي لذلك ظهرت الكثير من أشكال النقد السياقي الجديدة في العشرين عاماً الماضية بناءً على ما قام به الأكاديميون من السعي وراء طرق لعرض التغيرات التي طرأت على المجتمع المعاصر. لذلك فإن دراسة النظريات الأدبية الجديدة في الجامعة يعني أنك تقضي وقتك في دراسة المنهج السياقي الخارجي. كما أخذت أهداف التقييم الجديدة للمقرر الثانوي ذي العامين بالمنهج السياقي وذلك بتأكيدها على ضرورة دراسة السياق والاهتمام بتفسيرات القارئ المختلفة للنص الأدبي. أما الذين يعارضون ذلك المنهج السياقي النقدي فيأخذون عليه ابتعاده عن النص ودراسته لجوانب بعيدة عن أدبيته، بمعنى أنك لا تدرس الأدب ذاته بل تدرس السياسة أو العقل البشري أو التاريخ أو العلاقات بين الجنسين أو السيرة الذاتية للمؤلف أو ما شابه ذلك، ويرون كذلك أن ذلك المنهج لا يختلف كثيراً عن دراسة المعاهدات أو الوصايا أو أية وثائق تاريخية أخرى، فإذا كنت تقرأ رواية لتتعرف على سيرة حياة المؤلف، تصبح الرواية مجرد دليل للسيرة الذاتية ولا تختلف عما يُدوَّن في المفكرات اليومية. وتنتهي معارضة هؤلاء لذلك المنهج السياقي بأنه يغفل كثيراً الجانب الأدبي للنص.

obeikandl.com

مقارنة بين المنهجين

Contrasting these Two Attitudes

يمكنك الآن التعرف على الجوانب الأساسية لكلا المنهجين بالنظر للجدول رقم (٤,١):

الجدول رقم (٤,١). الاتجاهات النقدية الداخلية والخارجية.

الاتجاه النصي / الداخلي	الاتجاه السياقي / الخارجي
– يدرس النص ذاته – النص ما هو ألا نسيج مسطح – يستحق الأدب الدراسة لذاته لاستخدامه اللغة بشكل فريد – "النصوص العظيمة" هي محور الدراسة لما تحمله من قيمة فنية وأخلاقية – يلائمه المذهب الشكلي في الدراسة – يدرس الكلمات المطبوعة على الصفحة – تظل المعاني غامضة – من مسمياته "النقد العملي" و"القراءة المتعمقة" و"النقد الجديد" – يعد النص مستقلاً – يتطلب المعرفة بالنص فقط – يدرس الإسلوب والحبكة والشخوص	ـــ يدرس السياق المحيط بالنص ـــ النص نافذة على العالم ـــ يستحق الأدب الدراسة لما يخبرنا به عن أمور أخرى في العالم ـــ يعد أي نص جدير بالدراسة بناءً على ما يكشفه لنا من العالم ـــ يلائمه المذهب التاريخي ـــ يدرس السياق الذي كتب فيه النص ـــ السياق هو الذي يحدد معنى النص ـــ من مسمياته المذهب التاريخي أو التحليل النفسي أو النقد السياسي أو النسوي أو الفلسفي أو نقد السيرة الذاتية ... وغيرها من المذاهب النقدية ـــ يستقي النص معناه من السياق ـــ يتطلب معرفه بالسياق (أحداث التاريخ وحياة المؤلف ... الخ) ـــ يدرس الموضوع والمكان والزمان

كانت الاعتراضات السالفة على المنهج السياقي موضع مناظرات احتدمت لفترة طويلة قد يصادفك بعضها في مستويات مختلفة من الدراسة، لكن لابد أن

نعترف بأن كلا المنهجين سليم لما يتبناه من أساليب نقدية. وحتى لو وجدت "نواحي قصور" فيكفي أن كلاهما يلعب دوراً في دراسة الإنجليزية ككل، وغالباً ما يتمخض الجمع بين الاتجاهين عن أعمال نقدية مهمة.

يمكنك الآن الاعتماد على ذلك الدليل الإرشادي للمذاهب العامة في دراسة الأدب وفي عقد موازنات بين كلا المنهجين واستكشاف الأسس المكونة لهما ونواحي النقص في كل منهما.

ملخص

Summary

- تنقسم النظريات النقدية إلى اتجاهين أساسيين الاتجاه النصي/الداخلي والاتجاه السياقي / الخارجي.
- يركز الاتجاه النصي على لغة النص ذاته باعتباره مستقلاً عن العالم الخارجي، فما يهم هو الصفات الذاتية للنص حيث يصل النقاد للمعنى من خلال دراسة المفردات والتراكيب اللغوية المستخدمة.
- تبحث القراءة السياقية فيما وراء النص حيث تعده جزءاً من العالم، فينتقل النقاد من مجرد الكلمات المطبوعة إلى الأفكار العامة غير الأدبية كالتاريخ والسيرة الذاتية للكاتب والتي يمكن بدورها أن تستخدم لشرح النص.
- يشوب كلا المنهجين نواحي قصور وفجوات، فالمنهج النصي يفترض وجود قراءة موضوعية كما أنه يفصل الأدب عن العالم الحقيقي. أما المذهب السياقي فينعكس قصوره في النظر إلى "الأدب" على أنه شيء متفرد مستقل بذاته لذا فهو يدرس الجوانب غير الأدبية المتعلقة بالنص كالسياسة والتاريخ ... الخ.
- يساعدك الإلمام بهذين الاتجاهين في دراسة الأدب على عقد موازنات بينهما والوقوف على الأسس التي يقوم عليها كل منهما.

obeikandl.com